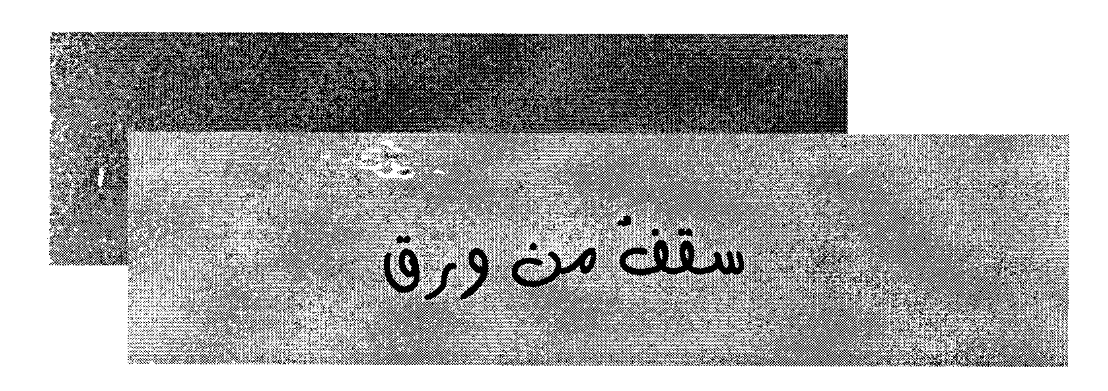


مجموعة قصصية

للكاتب / الوصيف خالد

دار روعة للطبع والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ٢٠١٣

"سقفٌ من ورق"
مجموعة قصصية

الوصيف خالد

غلاف//إيمان صلاح

الطبعة الأولى ٢٠١٣

دار روعة للنشر والتوزيع

المدير العام//هبة الشرقاوي
هاتف //٠١١٤٠١٧٨١٤٤
ميل//
darrawaa@yahoo.com

رقم الإيداع//٢٠١٣/٨٦٧٥٤
الترقيم الدولي //
978-977-6411-87-6

إلى ذكرى الصديقين الراحلين:

شهيد الحلم والنبل.. محمد أبيض..

ومن عاش لبثِّهما بيننا .. عادل محمود ..

إهداء

لرفاق الدرب الأعزاء: مروة تميم وطارق رمضان، عرفانًا بما أولياه بالمصنف من عناية، بالملاحظات والتدقيق، وبالنصح وإبداء الرأي.

ولكل من استنرت بنورهم:

- شهود المحاولات الأولى، من الأصدقاء الأدباء والكتاب والموسيقيين: الآسيوي، أحمد رضي، بختيار مصطفى، ثناء حيدر، حسام، جعفر حيدر، جلنار أحمد، حازم الحموي، خالد المشرقي، خالد ترمانيني، دينا حسين، سمير شاهين، شادي محفوظ، شتي، فاتن سليمان، ليا بدرة، مجد إبراهيم، معين، ميلاد قواص، مي هديب، نوار، يارا حيدر، يزن.

- الكاتب الكبير الأستاذ مكاوي سعيد.

- وللزملاء الأعزاء والأصدقاء بجماعة مغامير الأدبية؛ إذ أفادت نصوص المجموعة من تعليقاتهم وملاحظاتهم على مدار عام: أحمد الحضري، أحمد عبيد، إيناس عباس، حسام عبد اللطيف، دينا الحصي، سلمى خضر، عهود كاشف، فريدة الحصي، كريم فراج، محمد سيد عبد الرحيم، هناء كامل، وليد خطاب.

حصار

(١)

«الشمس بانت من بعيد.. جاية ومعاها يوم جديد..

يجعل نهارنا نهار سعيد.. نهار سعيد»..

الميدان جميل، وعسكري المرور يطلب مني بلطفٍ وأدب أن ألتزم الرصيف.. واقفًا كنت مع الجماهير العريضة ننتظر انتهاء «تشريفة» لصٍّ ما.. أفرج ذو الشارب المنمنم عنَّا.. نزلتُ من فوق الجزء الناعم المنزلق فسقطت.. أُجبر القميص على التوقف عن مضاجعة البنطلون.

يزحف باتجاهي الجراد.. رجل عظيم العَجيزة ونظارة شمسية فاخرة ترتديه على الرغم من الغيوم.. يصطنع الرفعة ويزدري شحاذًا يلاحقه، ويشبهه.. وتلك المختنقة تحت «الكورسيه» تهاتف أخرى، تفتعل اللكنة، تسعى لعريسٍ مختبئٍ برواقٍ ما.. تتقاطع طرقنا لثوانٍ تفرقنا.. لا أسلك ما تسلكون!

* * *

إضاءة خافتة. ستائر كثيفة تحجب ضوء النهار النامي. تناول حقيبة أسراره وألقى بجسده على السرير. ينظر إليها. ابتسامتها الواثقة تحتفظ بالبريق، لا تزال، وهو ينأى بعينيه عن العيون، لا يزال. باستثناء صور طفولته المبكرة لم يقف يومًا بإرادته أمام عدسة تصوير. يتهرب بافتعال لا يهتم بمداراته. يومها جلس مختارًا لأنها معه، ولو في صورة جماعية لتخليد مناسبة لا قيمة لها، إلا صحبتها.

تنساب المشاهد إلى مخيلته مع انسياب الدم المرتد إلى رأسه..

* * *

مشهد (١)

نهار – داخلي

واقف في الممر المفضي إلى غرفة تحتضنها. يستجمع شجاعته. نسي كل ما رتبه. يحمل اضطرابه ويندفع..

- تسمحيلي بكلمة؟

= اتفضل طبعًا.

- أنا بحبك.

مشهد (٢)

ليل – خارجي:

جالس بسيارة استندت إلى هامش الطريق. مائل الجذعِ ترتفق يسراه بالكرسي المجاور، وتعصر اليمنى نهدًا يكتم الأنين. يواصل التقبيل عنفًا مغمض العينين. تند عنها آهة فيتركها. تذكر شيئًا عن الزواج والأهل، فلا تعود اليد التي تداعب مدِيته يد فتاة البورنو، ولا الثغر ثغر الحبيب..

انطفاء.

***

مشهد (٣)

ليل – داخلي:

ممددٌ فوق أريكة الملهى الليلي، و«هيام» تجالسه. هو الاسم الزائف الذي أخبرته. . يجبر نفسه على الهوان، ولا استجابة.

* * *

تأخذه سِنة من النوم..

* * *

شوارع فسيحة، أوروبية الطابع، يقطعها مفلسًا مشردًا. يقابلها. ابتسامتها الواثقة تحتفظ بالبريق. مثله مشردة. يتيهان في المدينة. تدغدغ ثمار البرتقال المتدلية من شجرة القصر شهية الجائعين. يتسلق لأجلها جَذِلًا. يظهر من الغيب بوابٌ صعيدي له «شنبٌ» و«كلسونٌ» و«بالنبّوتِ» يضربه، فيسقط في نهر الراين.

(٢)

شارع عدلي. ألقى به التاكسي مبكرًا عن الميعاد ساعة. يجاهد نفسه لتغيير تلك العادة. مُهمة كريهة، وقبل كل كريه خمر. مرت أمام عينيه فتاة أشهى من كل فتاة شاهد خيالاتها تفعلُ فعلَ الفسقِ. رقيقة تنزل من فارهة لمرفه. نوبة تجديفٍ حارقة، ولجوء للكأس الأقرب.

(٣)

- استريح يا بني. اتفضل حصلت البركة. مالك مش على بعضك ليه؟ هاهاها.

= الحقيقة يا عمي أنا يشرفني إني أطلب إيد كريمتكم الآنسة تُقَى.

(يستغرقهما حوار تقليدي مستهلك)..

- هي حاجات بتفرضها التقاليد زي ما انتَ عارف. عندي فكرة أحسن من البهرجة الفاضية. حاجة قيمتها فيها وتعبير عن تقديرك للعروسة: كيلو دهب.

= يا عمي! خليها عندك والنبي. ما بتعرفش تبوس حتى، وعيالها هيطلعوا بِلْطِين.

(٤)

الشرب ما بيعملش حاجة على فكرة، غير إنه بس بيخليك صعب تتدارى من نفسك وبيصورلك أوهامك عن الناس على إنها حقايق. انتَ مثلًا: حاسس بيك دلوقتي كإنك صديقي الحكيم اللي كان

نفسي يبقى جنبي من سنين، وانتَ برة المحل ده ممكن تبقى ابن قحبة! الراجل أبو عقال ده من شوية كنت شايفه وحيد جاي يشتري الصحبة بالفلوس، وكان صعبان عليَّ. غالبًا هو برضه ابن قحبة. أنا جاي هنا عشان أسكر وأقعد مع واحد زيك وأحس إن الدنيا ظالماني، ويمكن ده مش دقيق وأنا كمان ابن قحبة.

أقولك أنا شايف إيه وما تقولش عليَّ سكران؟ ربنا خلقنا يعذبنا.

(٥)

يستيقظ. صداعٌ وكآبة. يتذكر قطة المقهى. أتت إليه تطلب طعامًا، بجوعٍ يزاحمه الخوف. داعبها بالقلم فنسيت الجوع لوهلة وبادلته اللعب. تركها إلى المطعم المجاور ليجلب لها شرائح «الكبدة» اللذيذة. عاد وما وجدها، وما أكل الشرائح من أحد.

النهار قد انتصف. الزجاجة أمامه والثلج، ومهام تتداعى على رأسه. اتكأ على صبره في المنتصف، وانفردت به الحيرة.

بعث

(١)

سنة وشهر وخمسة أيام. أجلس هنا منذ يأنس الناس ببيوتهم وساكنيها، وحتى الصباح. فرد أمن. تتنافس العلل بجسدي ولو هاجم المكان أحدهم لن أقاوم. على الأقل أجد ثمن الدواء. الفضل للعم محمد. لم يتوسط أحد لتعيينه في شبابه. توسطت له عاهته. في زمنه كانوا يسافرون إلى ليبيا، فمن يقبل بمصاحبة أجساد ينتظر ابتلاعها التراب؟

يسهر بينهم وينام، ما لم يغلَق الباب. يحول دون انغلاقه بحجرٍ يحرص عليه كحرص رئة غارق غلبه البحر على الهواء. أساعده مع كل وارد جديد ثم أنسحب رعبًا وهو مني الضحوك. لم يضحك الليلة. تمتم باسم الميت مرتين. حسين عبد العليم مخلوف. دقق بالكشف وتسمر قليلًا أمام الوجه، قبل إتمام التوقيعات. منذ أتى الزائر الجديد طال صمته، وزاد عرجه. انفرد به. أزاح الحجر وأغلق دونهما الباب.

(٢)

وحدك معه. ممددٌ أمامك، ضعيف تافه. لو تركته خارج البراد لتحلل كلحم فاسد عفن. وحيد دون صحبته. لن يجمع لك الآن تابعيه ولن يحاصروك في ركنٍ ويغلقوا الباب فيبدأ الضرب. تملك أنت الباب وتملك حق الضرب. فقد وجهه حمرته، وذبلت عضلات تفاخر بها في الزمن القديم. لكن فخذه سليمة وساقه مستقيمة. لم ينتقم الله منه بعدُ.

«وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ». الله يناديك، رسالة عبر المذياع أن الانتقام حق. نعم، «حياة» وهو ميت. لكن الله يحييه، وسيعذبه في قبره قبل بعثه إلى جهنم. سيشعر جسده هذا بالألم عمّا قليل. آلمه الآن. دع عنك خوفك من انتهاك حرمة الموت. لا حرمة لمن انتهك حرمة الحياة. أنت هنا بسببه وها قد أُعيد إليك. لولاه لتزوجتك «نادية» ولفرحت بابن منها وأحفاد. لولاه لما جالست الأموات.

لا تضيِّع الوقت أكثر.

الفرصة تفلت.

الرائحة بدأت في النفاذ.

أنزل به عقاب الله.

هنا، أسفل فخذه اليسرى.

يطرقون الباب الآن.

يحاصرونك لتحرم مجددًا من الحياة.

أسرع.

فُقتِ الشمسَ والقمر

- نويت؟

= محتار.

- سامحني.. بس يمكن ما تحتاجهاش.

= لأ. هَعْمِل شهادة ميلادها، وهتعيش.

* * *

حين أخبرتْه بحَملها ناءت الأرض بحِمله. عبث بروحه الانتظار. تخلص من شاربه فبدا أقرب لصورة زفافه. غالب الكهلُ الوسيمُ نفسَه وترك بياضَ رأسه. يستعذب سماعه لصوته يقول: «سارة»، ويقدم الهدايا لواهبة الحياة علَّها تتخلى عن حقها في اختيار اسم هديتها. كلما قالت «ناتالي» همهم: «سارة».

* * *

لما صرخت فيه بكى. كانت معجزة ما استناهاش. حس إنه عاجز عن إنه حتى يواسيني. كان نفسي يشوفها إمبارح وهي بتضحك وقافشة في نضارتي في عيد ميلادها. تمت سنة. لسه ما مشيتش بس يمكن بعد شهرين تلاتة تمشي. الدكتور قال كده.

هي اللي ممشية حياتي. أنا اتأخرت عليك النهارده عشان هي مش معايا، فالطريق كان زحمة. لما بتكون في مكان بتحل فيه بركة ربنا.

* * *

اتصل بها. كانت تعرف أين هو وماذا يفعل وما في رأسه. لدقيقة جمعهما الصمت. تهدجت الأنفاس وبتوسلٍ هتفا: «مريم».

نبوءة

يبسط اسم الفندق إضاءة هادئة من علٍ كبديل للقمر. أمامه، على ارتفاع أقل، صورة جماعية لوجوه حلوة الملامح - أحدها لفلاح نظيف الجلباب - تبتسم في ارتياح ويحيط بها شعارٌ يبشر بالمستقبل السعيد. يكمل تناغم المشهد هيكل لمكعب ضخم، بلا سقف ولا أرض، فوق مبنى ليس بمسجد. مفرغ من الداخل وعلى أوجهه الأربعة يقع اسم الإله منيرًا باللون الأخضر بخط كوفي جميل.

على الأرض، أمام مدخل مقر الحزب، رجل في أواسط الثلاثينات يحمل اللاسلكي بيمينه ويمشّط المساحة المحيطة بخطوات ملّت لون الأسفلت وصوت الراديو والزي العسكري. وهناك، استنادًا إلى سور الكورنيش، بجوار بائع الذرة، شاب قصير يمد يده ويسحبها في حذر ليحيط وسط فتاته بذراعه وهي، في إسدالها الأسود وحجابها تحته، تتململ بين رغبتها في احتضانه وخوفها من وشاية عابر. تحجبهما عن الرؤية عربة «حنطور» تتهادى، يفتعل سائقها لزبائنه ابتسامة.

تبتعد، مع خطوات الحصان البلدي العجوز، بارز العظام كقائده، رتابة الأغنية الخليجية مخلفة علبة مياه غازية قُذفت لتستقر لدى امرأة تبيع المناديل والليمون على الرصيف. تطلب برضيعها مشاعر الشفقة. يقف بصعوبة متكئًا على كتفها. غايته الإفلات من محيط نفوذ

قبضتها. يحاول فتمسكه عن مراده. يهدأ لبرهة ويحاول من جديد فتقعده من جديد.

بينما هو جالس في حجرها، يظهر على جبينه ملمح تصميم. يرفع يده إلى السماء يحركها كمن يحفر سطرًا على ورقة كراس. يتهلل الوجه الصبوح سعادة حين يرى العاشِقَين الخائِفَين قد انهمكا في قبلة. قام للمرة الأولى دون مساعدة. سقط.. ثم قام، مرتين، حتى ثبتت خطوته وذهبت محاولات الأم لإمساكه أدراج الرياح.

فبراير ٢٠٠٩

ما قبل هزيمة الراتق

٢٠١١/١/٢٨

عصرًا

سعيدة خطوته. واسعة بأقصى ما يقدر عليه صندله الجلدي الأسود، ولا يهدد ثبات شعيرات اجتهد في ترتيبها علّها تستر صلعته. عائدٌ إلى حارته وفتيان منها يخرجون. بيمينه يحمل الدجاجة المشوية والخبز والمقبلات، وتحمل اليسرى علب الجعة ملفوفة بورق الجرائد ومختبئة بكيس أسود.

ستزوره الليلة «هالة»، ولساعتين معًا سيمكثان.

بوغت بأصوات الرصاص القريب. تعثر وهو يجري بأحد أكياس القمامة فسقط. ترك انبطاحه إذ انتهت موجة الضرب. سأل أحد الراجعين، بجرح قطعي في الجبهة مغتنمًا خوذة شرطي وسترته، عمّا يحدث.

- القسم بيولع هناك، والمقتولين ياما. احمد ربنا إنك نجيت.

موجة أخرى من الطلقات. انسحب إلى بيته القريب مسرعًا وهو يعرج إذ فقد أحد نعليه. على الرغم من حزنه على الصندل كان ممتنًا لنجاته، ونجاة الدجاجة.

* * *

لا يبدو كمن يساعدها حقًا. ينزع القطعة بعد مداعبة ما تحجبه، ويداعبه ثانيًا إذ انكشف، وهي تكمل العزف بالتجاوب مع النغمة. ترشد القوس لمقامات جديدة يقدر على بلوغها الكمان.

* * *

٢٠١٢/٦/٧

ظهرًا

يتوارى صوت عبد الرحمن السديس إلى خلفية الصمت الرتيب بينهما. ينكب زميله على المكتب المنخفض، منهمكًا في تأمل مكونات ال**Hard disk** المبعثرة أمامه ربما يصل إلى أصل الداء.

المحل أضيق من أن يسع امتداد جسديهما، والأدوات والبضاعة المعروضة. أسند «شريف» رأسه إلى الرف الخشبي خلفه وسحب نفسًا من لفافة تبغ مخلوط أنهى قبل قليل إعدادها. رفع المنهمك رأسه وتمطى. التقطها منه وسحب نفسًا بدوره. سأله:

- هتنتخب مين يا «شريف»؟

= أنا مش عارف أقلع بلبوص في البيت، وفلوس الأكل بجيب بيها حشيش، والحشيش مضروب كيميا.

- طب كمّل الحتة اللي في إيدك. صاحبها جاي كمان شوية.

= انت صدقت إنك مهندس صحيح؟!

* * *

في استسلامها تبدو أجمل مما هي عليه. تنادي باسمه وتستزيد. يلملم شعرها من خلف رقبتها ويهمس أن «أحبك»، ويده الأخرى تستند إلى موضع اتكاء نُحت ليكمل لحظتهما تلك بالذات. لا يعكر صفوهما إلا الحرص على بقاء الاتصال خارجيًّا. يبلغان النشوة بالخيال في غير موضعه.

اقترب الوصول وانفعلت النغمة. انزلق المسند الإسفنجي لمرفق «هالة» فانزلقت وارتطمت جبهتها بقائمة «النِيش». سجادة ضخمة مائلة ومطوية كانت إلى «النيش» مستندة، فسقطت فوق العاشقين..

- كله من أمِك. هي اللي أصرت نجيب البتاع ده. ما يجيش من وراها إلا العكننة.

= ما تتخيرش عن «فايزة» يا «شريف». أمَك حدفتني بالشبشب في الشارع واحنا بنجيب النجف.

- طب انتي كويسة؟ وريني تعالي.

تحسس جبهتها برفق. تهيأ مازحًا لضربها «روسية» ثم لثم خدها وغابا بقبلة، لوصلِ وصال.

* * *

٢٠١٣/٧/١٩

عصرًا

ميدان الاتحادية مبهج لـ«شريف» على الرغم من ارتفاع درجة الحرارة. شباب وبنات من أولاد الناس يحتفلون ويرفعون أعلام مصر. قارن بين هيئته وهيئتهم. وجوههم أميل إلى الحمرة. خطر له أنه فهم أخيرًا سبب فقر الدم لديه، فأرجع خواطره إلى انقطاع الحشيش.

فوجئ بطائرات الجيش تلقي كوبونات الهدايا، وفي انحنائه لالتقاط أحدها فوجئ بـ«هالة» تلتقط واحدًا. فرحا بما وجداه مكتوبًا من أجهزة منزلية ستنفعهما عند إتمام الزواج، إن نجح «شريف» في استئجار شقة لا تشاركه «فايزة» المعيشة فيها.

* * *

تمدد، بقدر ما تسمح به الفراغات بين الصناديق بحجرة زواجهما — حسب الترتيب الملغى — وأشعل سيجارة. أسند رأسها إلى صدره، وراح ببطء يرسل دخانه إلى السقف..

- ساعات بقول أحسن لو أستنى أما نتجوز. وأنا لوحدي بتخيل إننا مع بعض للآخر، بس ما بتكونيش جنبي. وأنا معاكي بشوفك وانتي مش راضية للآخر رغم إني جنبك.

تحتضنه بما ملكت من قلب.

* * *

٢٠١٤/٦/٣٠

بينما يبحث عن وظيفة بـ«أهرام» الجمعة، عثر أخوه الأصغر قليلًا على خبر يزف بدء تنفيذ خطة تطوير المنطقة التي يسكنون بعد أربعة أعوام من التأجيل، ضمن فعاليات الاحتفال السنوي. دعا أحد السطور السكان إلى الاطمئنان.

نجح أخيرًا في الوصول إلى محاميه الحقوقي. طمأنه الأخير من محبسه أن القضية لا تزال منظورة وأن الأمل كبير أن يحصل على البراءة من تهمة التخابر فينجح في الحصول على حكم ببطلان تهجيرهم.

في أثناء عودته، شاهد لجنة معاينة أرض الفندق الذي سيحل بديلًا لبيته. يعرف رئيسهم. احتضنه وهتف معه لمصر بميدان الاتحادية قبل عام. أقبل عليه متهلل الوجه.

* * *

يحضر أخوها غدًا من سفره. سيمكث شهرًا لن يتمكن من الانفراد بها فيه. ألح عليها أن تبقى لبعض الوقت على الرغم من إلحاح عقارب الساعة. ما إن بدأ الوصل حتى أدرك خطأ ما فعل. اضطراب وقلق وغياب لذة. تزامن إنهاؤه السريع مع حضور «فايزة» وأخيه. فوضى. ارتباك. نجح في تغييب أمه وانسلت «هالة» لتكمل ضبط ملابسها في الطريق إلى باب العمارة.

لمحها أخوه، صاحب الشكوك السابقة. تابعها. دون إنذار دس يده تحت بنطالها. أفلتت منه وابتعدت.

لم تخبره. اكتفت برفض الذهاب إلى بيتهم، بلطف دون تبرير، ولم يكن يضغط. لم يخبرها، أو يخبر أخاه، أنه شاهد ما حدث على الدرج، ولم تخبره أنها تعرف.

***

٢٠١٤/١٢/١٧

صباحًا

أخبره صاحب المحل باضطراره لإغلاقه. بينما يفكر في كيفية تدبير نقود للإنفاق اليومي طمأنه أخوه - عبر إشارة متفق عليها - إلى توافر السلاح.

* * *

٢٠١٥/١/٢٨

ظهرًا

عانق ليل شعرها سحاب النهار. في مدِّها تصرخ «هالة»، وفي الجزْرِ. تتشبث بصدر «شريف» تحتها وتخمشه، وهو في تشنج جسده العاري لم يعرف لروحه انسيابًا كانسيابها الآن.

تجردا من كل خوف. تجردا من كل جدران. يمارسان الحب بمكعب خرساني بلا ستر من أي من زواياه. يطلان على الرفاق يمارسون الحب

على أرضيات الشقق المحتلة بمشروع سكني تحت الإنشاء. وفي الشارع، يناوب البعض بلجان السلاح. يحمون حركة مقاومة التهجير بالاحتلال، ويصعقون أيًّا من أهاليهم إن اقترب. نالت العصا الكهربائية من «فايزة» ما نالت.

في حيهم القديم، معركة أخرى قد اشتعلت. يسود المرح على الرغم من القتلى، ومن الشرفات يقذف الأطفال محتويات «النيش» في بيوتهم على قوات مكافحة الشغب.

سبتمبر ٢٠١٣

ثقبٌ بجدار الاحتماء

٢٠٠٥/١٠/١٧

نصف ساعة قبل أذان المغرب

واقفًا كان وسط محطة مترو «شبرا الخيمة». آخر الخط. لها آلاف الأبواب، هكذا أحس. خرجتْ من أحدها حبيبته؛ إذ أفلتت من مطاردته إياها لعشر محطات. حالت المسافة التي اتخذها للمراقبة بينه وبين معرفة العربة التي استقلتها. قرر الخروج من عربته في كل محطة للبحث عنها بين الخارجين، والعودة إلى مكانه أمام الباب إن فشل، متحملًا نفاد صبر الصائمين.

لم يفلتها. متأكد هو. أسرع الخطى من أحد المخارج وقرر قطع الطريق عدوًا، فإن لم يجد عاد ليفعل ذلك عبر باب آخر حتى نفاد الأبواب. حملته قدماه إلى سوق شعبية. تعثر بعربة طماطم فانطلقت حباتها إلى الأسفلت. واصل عدوه، حاول ذلك بالأحرى، ركّز طاقته في حماية الخطاب من عصير الطماطم وضربات البائعين!

٢٠٠٥/١٠/١٦

الثالثة بعد منتصف الليل

توضأ. شرع في صلاة ركعتين، ليلة القدر كانت، بين الركوع والسجود قرر استخدام حقه في الدعاء. حمل كل ما مضى ورفع رأسه بلهجة رجاء: «مروة».

لا يذكر كيف أنهى موقفه. أكمل ليلته يراجع خطابه الأول من نوعه. استسلم للتلقائية وعلَّق على الصدق آماله. لم يستبعد القصيدة الركيكة التي صاغها أول الحب، في الربيع. منذ قرر كتابة الخطاب والنوم لم يزُره إلا كأطياف هائمة. استقبل الفجر نائمًا فوق الحشائش ورأسه في حجرها بجزيرة «بالي». علم عن الأخيرة من كتاب.

٢٠١١/٤/٩

عصرًا

فوق أرض إحدى «جزر الأميرات» كانت عربة تجري به وببعض زملائه. رحلة جمعت رهطًا من الناجحين مهنيًا. أبدى أحدهم قلقه من شأنٍ إداري سيتحدد بعد عودتهم. ساءه تجاوب البقية، وتسلل لغو العمل إلى جنتهم البعيدة. أبدى تحفظًا، رقيقًا قدر ما استطاع. ساد الصمت لثوانٍ قبل أن يبدأ حديث السلع والتسوق. ابتسم يائسًا.

اختطفته من بين ضحكاتهم خيول بغير قيد، انحرفت عن الطريق المعبَّد إلى غابة الأشجار، فحلَّت بروحه صورها. ارتجف بدنه كارتجافته حين لم يطاوعه لسانه على الحديث، وحين خطت يده الكلمة الأولى في الخطاب.

٢٠٠٥/١١/٤

ظهرًا

لمحها من نافذة الأتوبيس، من خلف كتف من دهس قدميه مرارًا. سُرقت جنيهات مصروف ما تبقى من الأسبوع وهو يحاول النزول. لن يبرح بيته ولن يكمل المحاضرات. اقترف تلك الخطيئة للمرة الأولى بالأمس، واكتشف، لدهشته، أن الحضور كالغياب.

رفض السائق التوقف لسبب ما، فقفز دون اكتراث. ركض بما تبقى من ساقيه، وحين لحق بمن لا يعرف عنها سوى اسمها، كانت أخرى. ترتدي شيئًا غير ما لمحه قبل مغامرته.

أخرج الوردة الذابلة ومنحها لأول طفلة قابلها وترك الشارع، الذي لن تطأه قدماه لخمس سنوات.

مفارقة الجماعة

"هذا، وقد عُثر على أوراق مبعثرة بغرفة القتيل بين الرماد، وجُمعت لتسليمها إلى ذويه.."

(١)

السابعة إلا الربع صباحًا..

استيقظتُ على وقع قبلتها. بادلتها إياها مستمتعًا، وما إن حاولتُ العودة إلى النوم حتى انهالت عليَّ بعضّاتها الخفيفة ودغدغتها الخبيرة بأماكن التأثير، فما كان مني إلا الاستسلام والاستيقاظ. كافأتني بقبلة طويلة!

الاستحمام بعد ليلة حب لذيذ ويحلو معه الغناء. أتاني صوتها من الغرفة تتلو بعض مواد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وتؤكد لي مخالفة صوتي لها جميعًا وأن جيراني يتعرضون للاضطهاد والتعذيب واستحقاقي للعقاب العادل. ارتفعت عقيرتي أكثر ورُحت أنتقل بين القرار والجواب إغاظة لها وحين خرجت وجدت إفطارًا رائعًا. أعشق

طريقة تقديمها للطعام وقدرتها على إحالة بعض البقايا البسيطة طبقًا فاخرًا مشهيًا.

الكارثة الحقيقية حين تحاول الطبخ. تقول عنه إنه مزيج من العلم والفن، على القائم به أن يتحلى بدقة الكيميائي وخيال الرسَّام. نكون ساعتها في بيتها؛ فمنزلي ليس فيه أي مكان لإعداد الطعام، ولا حتى لأكله. تسألني عن رأيي فأقول لها بجدية تامة وتأمل صادق إن ما نتناوله كلوحة فنية رسامها كيميائي في الأصل، شرع في إتمامها بالمعمل ومن فرط انشغاله بها نسي التفاعل قائمًا فانفجر المكان ولُطِخت اللوحة بالهباء!

تفهمني أني واحد «بلدي» ومعدتي غير معتادة على تلك الألوان الفاخرة من الطعام. أطاردها إلى المطبخ مدَّعيًا مساعدتها في غسل الأطباق، وكالعادة أتسبب في فوضى شاملة وينتهي بنا الحال نتقاذف الصابون كالأطفال!

(٢)

قصدنا مأذون المنطقة، واصطحبنا صديقين للشهادة، أحدهما كان ثملًا، وما إن بدأ الرجل في المراسم حتى انفجرنا في الضحك ولم نستطِع التماسك حتى إنه طردنا مرتين، وبصعوبة بالغة عقدنا القران!

(٣)

واقفًا كنت، وسط حديقة صغرى أتطلع إلى القمر على ضوء نغمات الكمان. خفيضة تشوبها بقايا ثرثرة المدعوين إلى الحفل الذي انسللت من قاعته بالفندق الفخم قبل قليل. رُحت أتأمله ووجدته لم يتغير. تغير قماش ردائي، وقصة شعري، ونوع العطر الذي أستخدمه، وهو لم يتغير.. تمامًا كوحشة نفسي وشوقي إلى دفء الحياة، المتقد داخلي منذ جرت على لساني الحروف. القمر يمثل لي الأمل. يلوح في الأفق بين حين وحين ثم تحرمني منه أسباب الغياب، وفي كل الأحوال أعرفه أملًا لا يطال.

انتبهت على طرقات أصابعها لكتفي. أضاء قلبي بمدٍّ رحيم. ساعة مضت منذ استقبلتني ابتسامة التعارف وحتى قبّلتني على خدي!

(٤)

ثلاث سنوات مضت.. لم أطلب منها شيئًا ولم تطلب، بل كان كل منا يبحث طواعية عن رغبات الآخر لتلبيتها، ولم أعد قادرًا على تصور حياة لا تشاركني إياها ولم تعُد. على الرغم من هذا، خلت حياتنا من التطفل ومحاولات السيطرة وإلغاء شخصية الآخر؛ فلكل منا طموحاته ونظرته المستقلة للحياة. نظرتنا لها متقاربة، وهو من أسباب ارتباطنا وضروراته، لكن التقارب غير التطابق، وكلانا يفهم أن بقاء الآخر بجانبه ناتج عن اقتناعه واحتياجه، فقط الاقتناع والاحتياج، وأن الضرورة لا تنشأ إلا عن هذين العاملين الناشئين بدورهما عن الطموحات والنظرة المستقلة، ولذا تفهمنا أن رعايتهما رعاية للحب نفسه.

(٥)

وجدت الباب يُطرق بعد منتصف الليل، ومن العين السحرية لاح صاحب البيت. دخلتُ الحمام ووضعتُ ملابسها التي خلعتها داخل الغسالة وأحكمت غلقها ثم عدت إليها. سألتها أن تدخل خزانة الملابس وأعطيتها حاسبًا محمولًا وزجاجة مياه وطبق عنب وطلبت منها ألا تحدث صوتًا حتى أعود إليها.

اعتذر لإزعاجي. عيناه تفحصان المكان وهو يفتح موضوعات فارغة للحديث. اصطنع حججًا مختلفة ليدخل الحمام والغرفة والشرفة ولم ينصرف قبل ساعتين. فتحت الخزانة لأجدها تتناول حبات العنب وتشاهد أحد الأفلام، عارية تمامًا ومغطاة بالغبار!

احتضنت الخزانة فورتنا، وعزمنا ساعتها على الزواج!

(٦)

اليوم سنعرف هل ستأتينا «مريم»، أم سنستقبل «يوسف»، وعلى أساس تحديده سنشتري ملابسه الملائمة، أو ملابسها، ثم نحتفل، بغرفة السيدة زينب، بعيد لقائنا الأول الذي احتضنته جدرانها.

كان العام الجديد قد أتى ليشهد قناعة تمكنت منا باستحقاق ارتباطنا أن يستمر ما سرت بقلوبنا الحياة، ومع تحسن الأحوال، وطمأنة الأطباء أن مخاوفي حول الإنجاب لا أساس لها من الصحة، سعينا لتتويج حبنا بثمرة نرعاها معًا (على أن تشبه والدتها - ولدًا أو بنتًا - هكذا اشترطت!) وعرفنا قبل أسبوعين أن روحنا الجديدة بدأت رحلتها أملًا ينبض.

١

من بقايا مُفَكِّرة محترقة

مقتطف رقم (١):

"كل مسطح ممدود، وليس كل ممدود مسطحًا"

* * *

ربما كنت أُمًّا لولدٍ في مثل عمره لو تزوجت في عمر مناسب، كما البنات. سعيدات الحظ أقصد. بعضهن وُهبن حُسنًا ورثنه، وبعضهن وُهبن مالًا أو نفوذًا لعائل. إرادة الله اقتضت. ليس في القرب مني ما يُطلب لذاته فلا نفع يُرجى، ومن ثم لا حب.

يحبني. الولد يحبني. يدرك حاجته إليَّ واهتمامي به. لا يعرف أن مصير الأطفال، بالاستغناء مع مضي العمر، محرّم عليه، ولن يعرف. لن يعرف هاجري أيضا أن تتبُّع جديد مدونته الملقاة في الفراغ، مجهولة بلا زائرين ولا تفاعل، بات زاد يومي.

* * *

مقتطف رقم (٦):

عبث؟ تحدد حياتك خريطة وراثية، وأحوال غيرك. جسدك محتوم المصير بما اكتسبه من جينات، وظروفك يصنعها المحيط. حتى أخلاقك

وسمات شخصيتك يقولون بتحكم النجوم في مداراتها، فبأي حق يُحاسَب الإنسان، وهو السجين؟

* * *

أخي. كان عائلي فأصبحت عائلته.. توقف ذهنه عن تحمل الخطوب: زوجة خائنة وابن عليل. ألقى عقله الحمل وابتعد. ترك لي مأساته ومأساة ابنه، ومأساتي.

* * *

مقتطف رقم (١٤):

للسماء منطق واضح: آمن بالغيب وانضم للعشيرة تكن لك الجنة. أنت مُخيَّر في هذا واختيارك حر، وعِلم المطلق بنتيجته سلفًا لا يناقض حريتك ولا يُقيم لك عليه حُجة. لا وزن لأفعالك الخَيِّرة إن لم تؤمن، ولا ضَير من جرائمك إن آمنت (ستنعم في النهاية بعد قليل عذاب). أما ما تلاقيه من عنت الدنيا ومصائب القدر فاختبارات وبلايا تحط عنك بعض آثامك، ورفاق العشيرة عليهم لك حق العون بحكم جيرة الجنة. قد تسأل عن أهمية معيار الإيمان مقارنة بالنفع، وستجد جوابًا لا يعجب عقلك (القاصر بالضرورة عن إدراك حكمة الخلق لا لشيء

إلا العبادة). يجيبونك بصحة المنقول لإعجازه: لم يكن متاحًا محتواه للاختلاق حين قيل.

* * *

أحببتَه، وأحس بحبي. كان انكشاف الحجب بيننا فادحًا. النظرة أكثر من فاضحة، فانتهى بنا الحال وأحدنا يتحاشى الآخر. لم يبادلني الحب، ولم أحزن لحبٍّ من جانبٍ واحد كما حزنت بسبب حبه، على الرغم من تأخر الرغبة في سلم أولويات أحلامي عن الحياة معه. يلح طيفه عليَّ هذه الأيام. أسأل نفسي: كيف كان سيتصرف لو كان مكاني؟ هل كان انفلات عقله سيُقنعه بحجج الشيطان التي احتلت مساحة عقلي؟

* * *

مقتطف رقم (١٥):

لتحقق الإعجاز شروط. تتلخص – في حالتنا – في مقارنة قطعي الدلالة غير القابل للتأويل بحقيقة علمية ثابتة، وأن تكون نتيجة المقارنة هي التطابق. الأهم ألا يكون أحدهم – من البشر غير الزاعمين بصلة مع المطلق – قد سبق إلى القول بما يُبحث إعجازه، أو قال ما يمكن،

بإعمال عقل واستخدام أدوات البيئة، أن يؤدي إلى استنتاج المعجز المزعوم. يتعين استبعاد التلفيق. مثلًا: «دحا» الشيء تعني بسطه ووسّعه، ولا تعني: جعله كرويًّا مائلا للانبعاج كالبيضة!

* * *

بين مفترق الطرق: بقاء الولد على قيد الحياة يعني عذابه، وعجزي عن رعاية أبيه، واستحالة إفلاتي من مصير الفاشلين، عدا التسول. وببعض أجزاء جسده ينال راحة الموت، وتُحفظ لأبيه كرامته في مرضه، وتبقى لي فرصة نجاة. لو أن الله يفعلها!

* * *

مقتطف رقم (١٦):

«لا يُبرِّر وقوع الأرض بين الشمس والقمر حين الخسوف إلا بكون حركتنا على سطح كروي».

أرسطو – قبل الميلاد بمئات الأعوام

* * *

طرقتُ بابه. استقبلني وزجاجة الخمر في يده. أنصت مليًّا ثم قال: «غير مؤهلٍ أنا لنصحك. خذي هذه، واحرقيها عني». ناولني حافظة أوراق. حمل زجاجته وأغلق عليه باب غرفته. رددت ما قال إلى غرابة أطواره.

توقف عن التدوين، ثم حُذفت مدونته. قالت لي الجارة إنها رأت الباب مفتوحًا ذات نهار. كانت المصابيح مضاءة، والصنابير تهدر المياه. وجد الأقارب كل المتعلقات في مكانها، ولم يعد صاحبها بعدها أبدًا.

* * *

المقتطف الأخير (متفرقات):

- أبذل جهدًا مضنيًا في تدقيق كلمات لا يعيرها أي شخص بعضًا من انتباهه، ولا أعمل على نشرها بجدية. كرامتي تمنعني من دعوة من لا أعرف عبر الأثير إلى قراءة ما أنجزت، والادعاء بأنه مهم.

- لا أعبر عن يأسي خارج تلك المفكرة الخاصة. أنشر في العادة تحليلًا متفائلًا ينطلق من إمكانية التغيير، وأضع نفسي مكان الآخر

وأدعي الموضوعية، بينما أنا مغرض ومنحاز. الحق أنني أخدع القارئ. لا حاجة لتأنيب الضمير على أي حال، فلا قارئ هناك.

- التحليل الطبقي صحيح، لكنه ثقيل الظل وسخيف ومثير لسخرية مستحقة. التصوف في المقابل قريب من القلب على الرغم من كونه كومة خرافة. أنا أيضا أحب التصوف أكثر من الجدل المادي!

- لا أطيق «باسكال» ولا رهانه. فليكن ذلك الآن. سألحق بمدونتي، ولتلحق بي تلك الصفحات.

* * *

لحظات هي ما تبقى. أتمنى أن يكون من وشى هانئ البال الآن. أراح مغتصب طفلته ضميره وأبلغ عني، ربما طمعًا في ثوابٍ ما! أفسد كل شيء. سأُشنق، وتنتظر شوارع المهانة حطام أخي، وتحللت بقايا ابن أخي دون نفع. لن أنتظر، ولن يبقى من ورائي ما يخبر قصتي. أملك هذا على الأقل.

«أ» لا تساوي «أ»

(١)

طلبتْ رقمه الداخلي. يستغرب جمعها بين دفء الصوت وحميمية الموضوعات التي تختارها للحديث، وبين صرامة ملامحها، والإيحاء بإجراء مكالمة عمل، الذي تمنحه لبقية الزملاء بالقاعة. يعرف أنها لا تود التصريح بشيء قبل أن يتقدم رسميًّا إلى ما لن يتقدم إليه، حرصًا على مشاريع أخرى محتملة. خطر له لوهلة أنها تحدث غيره أيضا، ثم تذكر أن ذلك لا يهمه..

- عملت إيه في ولاد أختك إمبارح؟ غيرت للبت ندى تاني؟ متخيلاك وانتَ محتاس!

= بهدلوني! ربنا يكون في عون أمهم.

- انتَ عشان خالي مش حاسس. دول أكيد أحلى حاجة في حياتها.

= أنا برضه كنت أحلى حاجة في حياة أبويا. بس الحكاية دي مش فارقة معايا الحقيقة.

- أكيد نفسك تخلف. بلاش بواخة. دي سنة الحياة.

= ده مكروه مش سنة. فرض كفاية كمان. اعمليه انتي عني!

- إزاي يعني؟!

= أبويا جابني وسابني أتلطم ومات وضميره مرتاح. أنا ضميري بيوجعني من دلوقتي. خلي ابني مطرح ما هو قاعد. هو هناك أكيد مبسوط أكتر.

* * *

ظل لنهاية اليوم، ولأسابيع بعده، يضحك من طريقتها الفجة المرتبكة في إنهاء المكالمة، ومن عدم تكرار الاتصال أبدًا. أحس براحة لانقضاء الاحتمال.

اتصل يؤكد حجز الطيران إلى تونس؛ حيث سينفق آخر مليم من مدخرات العام.

(٢)

ترك المنزل، بتثاقل جديد عليه، ومضى إلى عمله. لاحظ طفلًا في السابعة يمشي خلفه. التفت إليه فوجده يقلد خطواته. ابتسم وعاود

المشي ثم عاود الالتفات المفاجئ. ابتسم الطفل وانزوى خلف إحدى السيارات خجلًا. واصل اللعب غير مبالٍ بتأخيره.

بنصف ساعة حذف رسالة بريد إلكتروني قبل قراءة محتواها (عرض ترويجي لسفر رخيص)، وعلم بإلغاء الترقيات على الرغم من مرور السنين، وتراجع عن قرار مداراة مشيب فوديه.

أمضى بقية اليوم يقاوم رغبته في مراقبة زميلته الجديدة ومعرفة حالتها الاجتماعية... يقاوم، ويفشل.

دون غطاء

تحاول تحريك ظهرها، والاستعانة بكتفها اليسرى علها تنتقل قليلًا فتقترب. مشد صدرها بعيد، بأقصى الغرفة. تودُّ لو تلملم بقاياها لتقلل وقع الصدمة على أي عابر محتمل. كل عابر محتمل يعرفها. لا فائدة من الكتف وحدها. على الحوض والساقين يقع عبء المساعدة. حاولتْ أن تضم ساقيها فعارضها الألم، ووقفت بوجهها ذراعها اليمنى؛ إذ تعالت منها آلام الكسر. تغالب اليأس والاستغاثة.

طوى خلفها ذراعها يقيدها، ويضغط عليها بينما يهتك سترها. نادت عليه بأنها كُسرت، فلم يسمع. ترقب في البدء لمحات استجابة، فلما تأخرت سأل عنها. يئس فشردت عيناه، وزاد عنفه.

* * *

تمر كل الفتيات هنا من أمامي، كل يوم مرتين. فرصة لتأمل الجميلات منهن. لتأمل ظهورهن بالأحرى؛ حيث لا يصح التفرس في ملامح إحداهن إذا أقبلت عليك. فقط تلتقط صورة وجهها لتنسب كل مؤخرة إلى صاحبتها على نحو دقيق. يتعمدن التعالي. بعضهن يمتنعن عن إلقاء السلام، وبعضهن يفعلن بتأفف واضح. من تفعل تحجز دورها في بطولة خيالات العادة السرية. خيالات عنيفة، مهينة، تنتهي بإعلانها الرضا والتذلل للفحولة أن تعيد الكرة.

رأيتها من بينهن، ولم يمضِ يومها الثاني قبل أن تُظهر اختلافها عنهن.

* * *

أراحتها تخيلاتها بقدر ما أرعبتها. لن يفلت من العقاب إن فعل. أيفعل؟ لماذا تعطلت خطوط الهاتف الأرضي، وغرفة التحكم بها بجوار مجلسه؟ ومن أين علم بانتهاء شحن بطارية هاتفها المحمول؟

محاصرة. تلمح خياله يقترب، ويبتعد.

* * *

بشوشة الوجه، دقيقة الملامح. ابتسامتها تفتتح اليوم بالتفاؤل وتمسح عن نهايته العناء. بِتُّ أمازحها. أتطلع إلى مفاتنها دون اختباء، وكنت أحس باستحبابها لكونها مرغوبة مني. ذراعاها المنسحبتان بانسيابية إلى أسفل تبدوان كإطارٍ يبُرز النهدين والخاصرة الدقيقة، تلك الأخيرة التي تُمهِّد لموجة لَعوب تُفسِح الطريق لامتدادٍ ناري يُغري بذاته، ويستحق، لحماه كل ذاك السحر، يستحق التبجيل.

كثيرًا ما تخيلتها، بأماكن غريبة؛ بغرفة خطوط الهاتف، أو بكابينة مغلقة بحمام البنات، أو بالمصعد. وفي كل مرة كانت داعية، وكان لقاؤنا مزيجًا من الرقة والترقب لعواقب مغامرتنا الخطرة. غازلتها مرة

بالتلميح. صارحتها في المرة التالية برغبتي في الزواج، فأهانت ندية نبرتي وتحولت ملامحها. باتت كالأخريات.

* * *

نبح كلبٌ بمقربة من مكمنها. لحق بنباحه صوته يطمئنها. هو صديق قديم له. فرَّ هاربًا من الاشتباكات الدائرة في الخارج إلى مأمن يعرفه. معركة بين طرفين يطلب كل منهما الآخر، ولن يلتفت أيهما إلى مخبئهما المعزول ولو استمرت الحرب حتى الصباح. هكذا قال.

أخبرها بأنه يحتفظ ببعض الطعام للكلب إن جاع، وبأنه يحتفظ ببعض الطعام لنفسه، ولها إن أرادت أن تشاركه. لا ترد. انشغل بمداعبة صديقه.

دقائق صمت طويل، لحقتها رؤية خياله على أحد الجدران، بجوار باب الغرفة. يتجرد الخيال مما يستر نصفه السفلي. يظهر التهديد واضحًا، متصاعدًا. تسللت، بكل ما استطاعته من حذر، وما تبقى لها من ثبات، وأغلقت الباب من الداخل. باب يملك التهديد مفتاحه. أسندت ظهرها إلى جدار آخر واستعادت خيالاتها عن الأسوأ.

* * *

وحدك معي الآن. أصبحت تُظهرين تأففك من رؤيتي فور أن طلبتك للزواج. أنا الآن هنا لحمايتك. لستُ متأكدًا من قدرتي على تلك الحماية إن هجموا، ولكن الضر لن يمسك قبل أن أصير جثة هامدة. مستعد لإطعامك والتسرية عنك. تلك مهام الزوج. يستحق مقابلها المتعة والاحترام، وأنت تضنين عليَّ بكلمة مجاملة.

هنيئًا لك بمديرك الغني الوسيم، الذي تركك عند إخلاء المبنى تنتظرين خروجه من اجتماع انقضى، حتى خلا المكان إلا منك، ومني. لم يسْعَ حتى للاطمئنان عليك عبر هاتفك المحمول. لم تتلق أذناك كلمة اطمئنان إلا مني، وترفضين محادثتي. ستكتمل خلوتنا رغمًا عنك.

* * *

انتبه من خَدَره على توقف صوت سيارات الإسعاف. يتطلع إليه بعض المارة، المنشغلين حتى حين بحصر الضحايا ولملمة آثار المعركة. تمدد كلبه مفارقًا الحياة بجوار طبق الطعام. تشتت ذهنه بين القابعة بالداخل وما سيحدث في الغد، وأصابعه تقلب شفرة تستعد للانقضاض.

إذا دعاه

يتسرب الدفء إلى العروق فبالنوم يغري. تصل إلى مسامعه دعابات المصطفين حول النار، ونقاشاتهم التي لا ينوون استكمالها بجدية كي لا يفسَد جو السمر. لا بديل عن الكلام بليلهم؛ حيث لا ناقل للأخبار إلا النجوم. تركوا ما يفرقهم بالمدينة وعادوا بالبادية أجسادًا تطلب الطعام والشراب والدفء، وأرواحًا تطلب السلام؛ لذا لم يرَ المتعب فيهم جحيمَ «سارتر». لم يهتم بحكايات القديسين، ولا تأثر بإعادة قصة الجبل الذي خرَّ من الخشية. انتبه لحديث العقارب ولدغاتها. لفظ النوم، وهَبَّ لصعود الجبل كما صعد موسى، ولتواجهه العقرب هناك.

كلما ابتعد عن الأرض بات الهرب من التفكير أكثر استحالة. الموسيقى والإجهاد البدني يزيدان وطأته على عكس ما توقَّع. ملائكة السماء الأولى لم تتوقع أيضا أن تستشعر نبضات قلبه. اعتبرته دائمًا من المعرضين. أمضتْ ليلتها مع صرخات أطفال «سيد» ونحيب زوجته في انتظاره. كان الأخير يقضي ليلته بخيمة في الشارع المفضي إلى بيت الحاكم. رفع لافتة لأيام تحمَّل فيها سخافات الحراسة، ثم يئسوا منه فأهملوه، ويئس من لافتته فألقاها. جرفتها مكنسة عامل النظافة حين مرت بجوار رأسه ذات صباح.

الصباح، كم يبدو بعيدًا! يعدُ طيف الجبال، البادي من خلال فرجة ضوء المصابيح، بجمالٍ لا نهائي إن الشمس أشرقت. استند مع رفاقه إلى صخرة على القمة، تحت سفح السماء. تكتلت أجسادهم ودار الحديث بلا معنى عساه يبدد وحشتهم. تردد «سيد» بين الصراخ وكتم ألم الكلى. لم يود لمزدريه أن يكونوا منقذيه، ولم يتوقع نجدة منهم إن صرخ. توحشت الريح وألقت بقطع الثلج والحصى فوق رؤوس الواقفين بالباب. جمدت عظام السائلين. نفدت الحيل. تعلقت القلوب، لكن الشمس لا تشرق.

خلف نافذة

(١)

صاح بعبارة نابية لاعنًا التكييف المركزي وفتحها. يمقتُ الرؤية من خلف نافذة مغبَّشة، ويمقت جدران الأسمنت.

هرع عامل دورة المياه، بكتل الصوف غير المتسقة على جسده، لينظر كيف اقتلعت الريح مزلاجًا أحكم به إغلاقها. عبارة نابية أقسى خطرت له حين رأى من تعمد فتحها يدخن مستمتعًا ونصفه الأعلى خارجها. كتم عبارته خوفًا وملامحه الممتعضة تُفصح. شاب يغني: «بفتح زرار قميصي» ولا يرتدي تحت قميصه هذا شيئًا! ظل غيظه يضرب رأسه من الداخل..

– ما هو البيه موظف لابس بدلة. بياكل كويس وجسمه دفيان، يمكن كمان شارب خمرة. عالم ما تعرفش ربنا. أنا ابني عنده برد من أول امبارح وضربته النهارده عشان ينزل الورشة.

غمغم، بينما يغلقها، من خلال ابتسامة صفراء: لا مؤاخذة يا بيه. حضرتك في التكييف جوّه، في الدفا. إحنا بنموت هنا.

(٢)

– يا كريم يا رب. استرها وهدِّي سر البت بحق جاه النبي.

لا تحفظ «أم طارق» أدعية نمطية. أتاها «فاروق» (السنِّي) بكُتيِّب لتقرأ منه فتكسب ثواب الأذكار. لم تستطِع مجاراته في حفظ ما لا يفهم. الله يحس ما تعانيه، هو وحده من يفعل، ولا يحتاج منها إلى حديث، فضلًا عن أن يكون منمقًا. تقضي يومها بجوار دورة المياه الخاصة بإناث المؤسسة، تقرأ القرآن. تتناول الفول والكشري، فقط الفول والكشري، مع زميلها «إبراهيم» وموضوع واحد للحديث: ابنتها ومشكلاتها مع زوجها.

الرياح اليوم منفلتة، والسماء حبلى بالمطر. لو جاءها المخاض ستتحول شوارع الحي الفقير إلى مستنقعات وقد يسقط «شعبان» من فوق «المكنة» فيحيل ليلة «زينب» إلى نكد.

(٣)

خرج من الحمام، من حيث يفكر دون أن يقدر أحدهم على التطفل وسؤاله عمَّا يشغله. الأهل ينشدون صالحه والزملاء ينشدون معرفة ما في رأسه لإيذائه. بين جدرانه يعيد ترتيب أفكاره ليخرج إلى الدنيا ويواصل النزال في مباراة لا نهائية الجولات، لا تُحسم بالنقاط ونتيجتها موضوعة سلفًا.

قاوم إغراء فتح النافذة رفقًا بـ«إبراهيم». اشتد الإغراء بنزول المطر. راوده الحلم المتكرر بممارسة الحب في الطرقات بمباركة السماء مع حبيبة ثورية لا وجود لها. انتبه «إبراهيم» لخروجه وتحفز لشجار لو أُعيد فتح النافذة، غير آبه بما قد يليه. زاده المطر ضيقًا وتخوَّفَ من مصير السقوط من فوق «المكنة» في المستنقع. اقتحمت «باكينام» المشهد، بحجابها البرتقالي وحذائها الأحمر وطلاء الملابس على جسدها متدفق الحيوية..

– أيوه يا ماما. مش عارفة إيه اليوم ده يا ربي. أُف. الدنيا مطرة وهدومي هتبوظ والكعب هيوقعني. تخيلي السايس لقيته كان بياكل كشري في العربية. قلب ريحتها، ومسك الدركسيون من غير ما يغسل إيديه...

جذب حديث «باكينام» انتباه الواقفَين، المتأمل منهما والمتحفز. المتأمل تملَّك منه الضحك، والمتحفز بات تحفُّزه بسببها أكبر من أن يُحتمل. تابعاها حتى مضت، ولم تُنهِ شكواها، ليجدا «أم طارق» بقربهما، لِصق النافذة، تبكي وتبتهل إلى الله، تحاول تذكر الدعاء الذي قال «فاروق» إن الله يجيب قائله عند المطر.

سقفٌ من ورق

«العودة إلى الأصل. تعتاد الشيء إذا ساكنته فتفقد القدرة على إدراك تفاصيله. تلك التفاصيل التي دفعتك إلى التعلق به ابتداء. الآن أكتشف الغرفة من جديد؛ صورة جمال عبد الناصر، لم أعد مؤمنًا بتجربته كما كنت، لكن شيئًا يمنعني من إزالتها. فيروز وجيفارا وزياد الرحباني. علم سوريا من القماش، اشتريناه معًا من (باب توما). سريري/ سريرنا. لن تغادره من فوق جسدي بعد الآن، ولن تُقبِّل جبهتي كأول فعلٍ صباحي. منضدة قهوتها وسجائري، ملابسي المبعثرة التي تنثر عليها عطرها لأتذكرها فتحرجني أمام الناس. ركن أشيائها الخاصة الذي خلقته والذي استوطنه العنكبوت.

تم ما تم بتدبيري؛ فَقدّتُ الشغف فاستسلَمت للملل واعتقدت بنهاية علاقتنا. تستحق الغرفة أن تبقى خربة كما هي/ كما أنا».

أمسكَ عن الكتابة ورسمَ خطين مائلين بعرض الصفحة، ببطء يفيد التأكيد. المبالغة في العبارة الختامية لا تناسب طبيعة العلاقة التي رسمها، ولا شخصية القائل. كما أن إقدام الكاتب على إعارة بطله بعض تفاصيل غرفته بلغ من الرعونة حد خلق تبريرٍ لإقحام علم سوريا دون صلة بالأحداث ولا إفادة.

الإفراط في تجرع الكافيين يحدث نفس أثر الافتقار إليه. هكذا فكر.

* * *

ابتسمتْ له. من موقعها الثابت، وقد اختارته لتكون قريبة من موقعه الأزلي. ابتسمتْ له. فرح لذلك فرحًا صامتًا. التفت لورقته ومحا كلمة: «بموجب».. إيه «بموجب» دي؟ في سمكري هيقول بموجب يا بأف؟!

بتماسك كاذب طلب قطعة حلوى. الطلب الألف، ولأول مرة يطلب شيئًا غير القهوة!

وضعتْ ساقًا فوق ساق لتُظهِر جمال قالب ونضارة بشرة. عبثتْ بضفيرة، متعمِّدة، لتشي بحداثة السن، وبروحها الغضة. بصعوبة قاوم الابتسام. تناول ورقة بيضاء. كتب جملة حوارية خارج السياق بقصة تحت الإنشاء: «ألبوم تامر حسني الأخراني جامد آخر حاجة!»، ثم تراجع كالمستدرك: لما انتَ كنت في الجامعة - زمن القصة المفترض - ما كانش لسه حد بيقول «آخر حاجة» دي. غير إنه عيب أوي حد يفتح مجموعة قصصية يلاقي كلمة مبتذلة زي «آخر حاجة». كمان ما كانش فيه ساعتها تامر حسني أصلًا!

ما زال يقاوم الابتسام.

* * *

أتتْ، وقد تصنعت الجدية. صنعتْ من تموجات شعرها قُبَّة فوق رأسها لتبدو ناضجة، مع نظّارة مقعرة لا يعلم من أين أتت بها. تكبر لتعجبه، هكذا استنتجتْ. لم يضحك، كما كان ينبغي له، بل زاد وجومه. أقحم جملة بقصته الجديدة على لسان البطل: «يا بنتي في سنك ده انتي محتاجة تحبي وتتحبي، في سكة الجواز. أنا ما بتجوزش يا بنتي. برَافِق بس». قرر أن يخلق موقفًا يناسب العبارة لاحقًا.

كلما لمحها في نضوجها المصطنع تذكر ساقطة الأمس. يثير الربط اشمئزازه من نفسه ولا يقوى على الفكاك منه. تذكر كيف حاولَتِ المحترفة الإخلاص في إمتاعه، على خلاف تقاليد مهنتها القائمة على الإيهام. كان بها رفيقًا، واستعان بخياله ليقضي حاجته – وكانت المراهِقة المعجَبة عونه في ذلك. اضطر إلى الاستمرار في المضاجعة حتى لا يضطر إلى سماع شكواها. تصنَّع الرضا وأجزل في العطاء.

قذف الرشفة الألف إلى معدته الخالية. أقحم عبارة أخرى: «أنا من جوايا خربان».

* * *

أتتْ، بفستان أبيض تزينه أزهار بنفسجية، يُظهِر ساقيها الشهيتين. هشَّت له وحيَّته. أجاب التحية من موقعه الوقور. تخيَّر الوقار قاعدة لانطلاقه المحتمل. منحها ابتسامة فوقية. لشدة انفعالها الفرح تعثر مرفقها بقدح القهوة فانسكبتْ. هالها ما حملته ملامحه من الهلع. مخطوطات نَثْر سنة قادمة كانت فوق تلك المنضدة، وإن اطمأن إلى سلامة ثروته لم تقنع العينان منه بالسلامة، فتشبثتا بالوريقات الناجية. لم ينتبه لغيابها حتى وقع.

حرَّك القلم؛ إذ انصرفتْ، لكن حرفًا لم يخط. لم يدرك الراوي ما بذهنه انبلج، لم يحِن بعدُ وقت البوح. لن يكتب عمَّا لا يعلمه الراوي إلا إن تجاوزه، وها هو ذا فوق مقعده الأثير يتجرع القهوة، وراحت الفتاة ولم تعد.

سراب

«يلوح من بعيد.. يتبدى في الأفق شعاع نور يومض ثم يختفي..

لمح الساقي توق زائره إلى البوح، فرسم بملامحه - كما علمته معاملة السكارى - علامات الاهتمام..

تقابل إنسانًا تعتقد أنك بحاجة إليه. تنجذب إليه دون سبب ظاهر. لا هو العشق ولا هي الصداقة. بعض المصادفات، ما نسميه المصادفات، تتوالى، فإذا يداك تمتدان بالعون إليه، وإذا بك تدرك أن التفاصيل كلما أخذتك ترى حياتك كلها رأي العين مجسدة، وإذا بقلبك ينصهر.. هلعًا أن تتوقف دقات قلبه فتفارقك الحياة..

لا يدرك الناس ما أنت فيه. يظنونه الهيام، أو التطفل، ولا سبيل للومهم، فما من شاهد فيهم جرَّب ذات يوم أن تتمثل في حياة غريب عنه كل معاني الأمل».

صمت لبرهة والتفت إلى صاحبه متأملًا هيئته وهو يعيد الحياة إلى الكأس:

«أنت مثلهم لا تصدقني..

الحياة صفحة بيضاء قام مجنون بالكتابة فوقها. كتبَ فقرات كل منها متماسكة في ذاتها. لا يربطها رابط إلا كلمات كُررت هنا وهناك، وإن احتفظت بدلالتها في سياقها الخاص»..

لمح بعيني ساقيه استخفافًا. كفَّ عن الكلام وطلب جرعة ثالثة من مخدرٍ يزعمون بقدرته على خلق النسيان. لجأ إلى هاتفه وبحث عن رسالة جديدة من تلك التي لا يعشقها وما هي بصديقته، بلهفة غير الهائم ولا المتطفل، فلم يجد. سأله الساقي - بنبرة المعتذر - أن يكمل ما بدأ..

«كنت أحدثك عن فقرات على صفحة بيضاء. فقرة هناك لا تجد التناغم مع غيرها، ولا تقترف البوح بمعانيها، وإن فعلت أساءت الاختيار»..

إشارة تنبيه برسالة جديدة، من هاتفها ولكن بكلمات غريمه. يخبره أنها الآن على سريره، وأنها ترى ما يكتبه له، وأنه سيصير أضحوكة في الغد على يد من خسر الجميع لحمايتها ممن يسخر الآن من غبائه. سيأمرها، وستفعل..

تلقى اللطمة كالمتنبئ. قاوم ما لاح له بالانتقام بنشر رسائلها، أدق أسرارها، على الشامتين، ثم حنق على رغبته وعلى مقاومته. نزع شريحة

الاتصال من هاتفه وكسرها. أغرق الهاتف بوعاء الثلج وراح يراقب المياه المتسللة إلى أجزائه..

خلاص

يمكّنه ما بقي من توازنه، بالكاد، من تحديد موضع ارتكاز عصاه على الأرض، لينقل قدمًا تجاور الأخرى وتهوّن عليها إعادة الكرَّة. لم يرَ الحجر الصغير فتعثر وكاد يقع، لولا تدخل الغريب. أخذ بيده لعبور الطريق، ولاحظ أنه لا يسمعه. خطر للغريب أن يلعب. كان يشير إلى جهة قدوم السيارات أثناء الرحلة، محركًا شفتيه، موهمًا رفيقه بقدوم الخطر. استجاب العجوز للإشارة مرة ومرة. لم يفهم في البدء ثم أدرك حين لمح شبح ابتسامة مهتزة على شفتي الآخر. وكأنها التكأة، دفع الغريب بعصاه، وألقاها. استدار في وقوعه ناحية الخطر. لم تفارق وجهه ابتسامة الراحة حتى غطتها صفحة الجريدة.

ياللي انتَ ناسينا

داعب شعاع الشمس جبهته، فاستدار ودفن رأسه بالرمال. مد النهار سطوته، كالواثق، فتقلّب. تبعثرت علب الجعة الفارغة التي اجتهد قبل نعاسه في ترتيبها. تمدد وتمطى وعلى مرفقيه اتكأ. كان أول ما رآه الغراب. يرى الغراب جميلًا، لسواده نبل التعفف. يجتمع مع رفاقه تحت المظلة. يرى الناس ولا يقربهم. يكرهونه لغبائهم فيرد بإهمالهم. يزعجهم صوته العادي لاختلافه. لا يطيق العوام الاختلاف.

حاول جذب انتباه الطائر النبيل فلم يفلح. ظهر عامل الفندق المختص بمراعاة شئون الشاطئ. يفتح المظلات ويتأكد من نظافة المضاجع. نقل النزيل تأملاته إلى العامل: السمرة المكتسبة والمهنة المريحة ومساحة التأمل المتاحة، حد الملل. يغبطه على مهنته.

- صباح الخير. نمت هنا برضه؟

= هو ليه ما ينفعش أجيبها معايا؟

- يووه! قلتلك ممنوع يا أستاذ.

* * *

استسلم مبتسمًا لصوت العجوز المنتظرة دورها بالعيادة. لا تدرك أن صوتها أعلى مما ينبغي لضعف سمعها. ترك الكتاب، وراح يستمع لذكريات امرأة وحيدة، لا يؤنسها إلا كلبها المريض. زحف قماش الحجاب إلى رأسها، لكنها لم تفقد أناقة بنات طبقتها. تطغى الحشمة اللائقة بالعمر على التدين في ملابسها.

جلست على يمينه فتاة يتراوح عمرها بين الثامنة عشرة والعشرين. ملامحها رقيقة، جميلة. جسدها الطويل طازجةٌ مفاتنه، خمري اللون. ترتدي بنطالًا قصيرًا وقميصًا خفيفًا لا يحجب الذراعين. ليس لأمثاله معاينة لوحة كهذه إلا في عيادة بيطرية بحي الزمالك. غالب خجله فغلبه. أثنى على جمال قطتها وسألها عن عمرها ولِمَ أتت بها إلى الطبيب. أجابته بإنجليزية عذبة أنها لا تعرف العربية!

حيلة للهرب! هكذا استنتج. ملامحها شرقية. تحدَّث معها لدقيقتين بالإنجليزية وعدّ شجاعته انتصارًا. خطر له أخيرًا أن يطلب منها تقبيل وجنتيها، لكنه لم يفعل!

انتظر حتى أخبره الطبيب أن «اعتدال» تعاني التهابات في الرحم ظهرت بعد أولى محاولات التزاوج. طلب منه مراقبتها وزيارة العيادة بعد أيام لاختبار أثر الدواء.

* * *

عرفت خطواته حين عاد من السفر قبل أن يجتاز باب البيت. أتت إليه. مشت بمحاذاته حتى احتك ذيلها بساقه. راحت تموء وتمددت أمام قدميه، وحين داعب رأسها بأصابعه احتضنت كفه بيديها الاثنتين. أسندت رأسها إلى كفه الأخرى وغابت لثوانٍ ثم قامت لتُشبع يديه عضًّا. تعاقبه على الغياب.

«اعتدال» هي صديقته الوحيدة. تلعب معه في الصباح وتعبث بأشيائه في المساء إن انشغل بها عنها. هو الأقرب إليها وهي الأقرب إليه. «فرغلي» يحبه أيضًا، لكنه لا يأتيه إلا طلبًا للطعام! تعرف «اعتدال» طريق طعامها وتأتيه لمحبة بلا غرض. تحب النوم بجواره وتستجيب للمسته، فيتبدل بفضلها مزاجه الليلي.

ها هي بجانبه، لا تأكل ولا تقوى على اللعب. تنظر إليه في وداع من لا يدرك إمكانات الطب، وهو يجهز طعام مبيتها حيث ستستأصل مصدر وجعها. يثق في الطبيب، وتصله سمعته، ويشفق من تعريضها للخطر، ولا يقوى على انتظار مصير محتوم.

قاوم حياؤه الرقصَ لاحقًا حين أكلت لأول مرة، وحين بات يطاردها لئلا تنزع خيوط الجراحة، وحين طاردته لتطلب اللعب.

* * *

كعادته مساء كل أحد، يجلس لمدة ساعتين بالمقهى. قد يقرأ وقد يكتب وقد يتأمل اللاشيء. يحب الجعة، ولا يحب تناولها في وحدته، إلا على البحر. يأنس بالشاربين أو السماء.

باغتته بالاتصال. كانت قريبة وطلبت أن تمر عليه. سخرت من المقهى الفقير ومن وصفه الحميم للسكارى البسطاء. رفضت أن تشرب. منعها الطبيب لتعارضه مع مضادات الاكتئاب. هي من الأصل لا تحب الشرب، ولا تحب الجعة بالذات. أخذته إلى مكان أفضل، كما قالت.

كان يتأمل أصابعها وعينيها وصوتها، وكانت تمزقه بحكاية ليلتها التي قضتها في المصحة حين خافوا عليها من محاولة الانتحار. راح يقص عليها حكايات طريفة مختلقة، ويحكي لها بصدق عن «اعتدال».

حين مشت كان يعلم أنه لن يقابلها لسنوات أخرى، كتلك التي سبقت الاتصال.

* * *

الضيفة الجديدة عروس طيبة، و«اعتدال» لم تكن مضيفة كريمة!

حين غابت للعملية الجراحية كاد «فرغلي» يُجنُّ. بحث عنها في كل ركن بالبيت. انتظرها عند الباب وتوقف عن الطعام. كاد يرقص هو الآخر فرحًا بها حين أتت، لكنه يحتاج إلى الأنثى لا يزال، وهي لم تعد قادرة. حوَّل اهتمامه عنها، وحوَّلت حزنها تضييقًا على زوجته!

اكتشفت «اعتدال» أن الزوجة تأنس إلى صديقها البشري، وتحتمي به بعدما شعرت بحملها. تحتمي به من نزق «فرغلي»، وقد أدى مهمته، ومن بطش أنثاه القديمة.

عاتبت «اعتدال» صديقها، وخاصمته لأيام، ثم توقفت عن مشاغباتها. انزوت بركن بعيد، زاهدة فيما سوى وحدتها. قرر أن يصالحها.

* * *

ترك الحافلة سعيدًا أن أحدًا لم يكتشف خبيئته. واصل الاختباء والتظاهر حتى اجتاز إجراءات الاستقبال بالفندق، وأكملت «اعتدال» تواطؤها معه. كانت بحقيبة يده، لم تتحرك أو تموء. في

الحافلة أخرج رأسها ووضع المعطف على ساقيه فوقها. تاركًا مساحة كافية لتنفسها.

خرجا قبيل الفجر إلى الشاطئ؛ حيث لا أحد هناك سواهما. لم يحمل علب الجعة التي لم يقربها منذ ليلة المقهى. فتح الحقيبة لـ«اعتدال»، وأخرج من جيبه قلم الليزر، لعبتها الأثيرة، وتركها تطارد نوره حتى تعبا. تمددا على الرمال يطلبان من البحر الصباح.

المؤلف

الوصيف خالد عيد

يعمل في مجال الائتمان المصرفي

صاحب مدونة «آفاق»:

/http://sailing - to - hope.blogspot.com

عضو جماعة مغامير الأدبية

Waseef.khaled@gmail.com

سقفٌ من ورق